

دلائل الإعجاز

فصل في شواهد على النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع .

واعلم أن ممّا هو أصل في أن يدقّ النظر ويغمض المسلك في توخّي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأولٍ وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحداً وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع يمينه هاهنا في حال ما يضع يساره هناك . نعم وفي حال ما يُبصر مكان ثالثٍ ورابعٍ يضعها بعد الأولين . وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدّ يحصره وقانونٌ يحيط به فإنّه يجيء على وجهٍ شتّى وأنحاء مختلفة . فمن ذلك أن تراوَجَ بين معنيين في الشرط والجزاء معاً كقول البُحْثري - الطويل - :

(إذا ما نهى النّاهي فلجّ بي الهوى ... أصاغتْ إلى الوّاشي فلجّ بها الهَجْرُ) .

وقوله - طويل - :

(إذا احتَرَبَتْ يَوْماً ففاضتْ دِماً وُها ... تذكَرَتْ القُربى ففاضتْ دُمُوءُها) .

فهذا نوع . ونوعٌ منه آخرٌ قولُ سُلَيْمانَ بنِ داودَ القُضاعيّ - الوافر - :

(فبينا المرءُ في علياء أهوى ... ومنحطّ أُتِيحَ له اعتلاء) .

(وبينا نعمةً إذْ حالُ بؤسٍ ... وبؤسٌ إذْ تعقّبَ به ثراءُ) .

ونوعٌ ثالثٌ وهو ما كان كقول كُثَير - طويل - :